الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر

(لعدنان وزان)

وزان، عدنان محمد/ الاستشراق والمستشرقون : وجهة نظر. ـ مكة المكرمة : رابطة العالم الاسلامي، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م ، ٢١١ ص (دعوة الحق ـ ٢٤).

يشخص المؤلف كتابه هذا بعنوان فرعي هو «وجهة نظر». وفي «تقديم» الكتاب يجلي هذا الموقف بقوله : «ولست أزعم أن هذا البحث هو دراسة متخصصة عن الاستشراق والمستشرقين، ولكن بعض المواضيع والمباحث تدفع المتخصص وغير المتخصص للبحث فيها». ثم يعلن عدنان الوزان على ربط عمله هذا بواجب الجهاد في سبيل دعوة الحق. وفي فقرة أخرى يقول الوزان: «والحقيقة إن الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع هو رغبتي في المشاركة ببعض ما مرّ بي من مواقف وأحداث فترة دراستي في بلاد الغرب وبالذات مع المستشرقين». ويسرد المؤلف واقعة تعرّض فيها المستشرق الفس مونتجمري وات للاسلام بوصفه بما ليس فيه، وكيف يرضى الطلبة المسلمون الضعفاء بمثل ذلك التجريح لكن لا يرضى الغيورون على إسلامهم إلا بالمعارضة المفحمة للمستشرقين.

يستوعب الكتاب بجانب المقدمة والخاتمة القصيرتين سبعة فصول. وقد جاءت هذه على التوالي: الاستشراق تعريفه وتاريخه، الاستشراق أهدافه وأغراضه، غاية خطيرة للإستشراق ، طبقات المستشرقين وأنواعهم، لا موضوعية عند المستشرقين، حاضر الدراسات الاستشراقية، وأخيراً، الإسلام في الآداب العربية. وألحق الوزان بكتابه قائمة تضم أعلام المستشرقين الغربيين وقد رتّبوا أبجدياً حسب بلدانهم. لكن قائمته لم تضم سوى هؤلاء الذين انتموا إلى فرنسا، المانيا، ايطاليا، اسبانيا، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي. ويختم الكتاب بقائمة مراجع بالعربية والإنجليزية.

كان من الطبيعي ، طالما جند الكاتب نفسه للجهاد في سبيل دعوة الحق، وهو أمر يجب على كل مسلم، كان من الطبيعي عندئذ أن يطّلع الوزان على مؤلفات علماء المسلمين الذين نافحوا المستشرقين وآراءهم طوال القرن الماضي، إن لم يتعد ذلك. وقد ضمت قائمة هؤلاء العلماء رجالا مثل ابراهيم خليل أحمد، محمد أسد (مستشرق مسلم)، محمد البهي، أنور الجندي، علي جريشه، محمد محمد حسين، نذير حمدان، عبد الجليل شلبي، مصطفى السباعي، محمد عبدالفتاح عليان، عبد الحليم عويس، محمد الغزالي، عمر فروخ، سيد قطب، عبدالحليم محمود، وأبو الأعلى المودودي وعلى مؤلفات هؤلاء العلماء، في ردهم العنيف على المزاعم الباطلة والخاطئة للمستشرقين، بنى الوزان معظم نقاشه في الكم الأكبر من فصوله وفقراته. ورغم أن ردود غير الفقهاء من مثقفي المسلمين والعرب على الاستشراق الخاطىء قد وجد حيزاً في مراجع الوزان، إلا أنه لم يرض لحواره أن يتقعّر على أساس غير المنافحة الطالعة من حماس ديني مغضب. فالكاتب قد أطلع على عمل إدوارد سعيد، محمد غنيمي هلال، طيباوي، نجيب العقيقي، هشام شرابي ، عبدالله العروى، رودي بارت وطه حسين. لكن الوزان يجعل استعانته بآراء إدوارد سعيد ورودي بارت وطيباوي ونجيب العقيقي وغنيمي هلال محصورة في استخراج العضبية الغربية المعادية للإسلام. أما عبدالله العروي وطه حسين ومعهما «مستغربين»، إن صح التعبير، أمثال فيليب حتي، عطيه سوريال، جورج والبرت حوراني، نجيب العقيقي، جرجي زيدان، نجيب محفوظ، نبيه فارس، فتحي غانم، جورج نقاش، الطيب صالح وغيرهم وغيرهم، فكلهم ذيول للاستشراق وأدوات هدم ضد الإسلام. وهذا موقف لا شك ينبع من ذلك الجهاد الذي يضعه الوزان نصب عينيه في المبتدأ ثم يخلص له. وبالطبع فإن هذا الموقف لا يجد من المسلم إلا التأييد،

لكن هذا التضييق، وعلى المستوى الثقافي العريض، يحطم الجسور التي كان يمكن إقامتها في الوسط لإجراء نقاش هادف وهادىء يوضح إلى أي حد، وفيم، وكيف تجرأ كل فرد من المستشرقين وأذيالهم على طعن الإسلام والمسلمين والنيل منهم.

الشاهد على المنهج الضيق في كتاب الوزان هو قوله في الفصل الأول، «والمستشرقون جميعاً متفقون في عدائهم للاسلام مع تجاهلهم لحقيقته وعدم اتقانهم للغة العربية ومن يعرف اللغة العربية منهم قلة». وحينما يحصر الكاتب صفات المستشرقين كما يجملهم، حسب ايراده، مصطفى السباعي، يضيف إلى سوء ظنهم عملهم المقتصر على: «تصوير الحضارة الاسلامية تصويراً دون الواقع وتهوين شأنها واحتقار آثارها ومساهماتها». هذه التعميمات المطلقة هي ما أسميناها «افتقاد النقاش الهادىء الذي يضع كل شيء في نصابه». إذا كان المستشرق مسلماً فهل هو مستشرق أم شرقي؟ أين جارودي مثلاً من هذين الموضعين؟ أو قل موريس بكاي؟ أو حتى عبد الكريم جرمانوس؟ ليس في عمل هؤلاء عداء للإسلام، وقد تكون هنالك أخطاء كما في كتب المسلمين، متصوفة وفلاسفة وشيعة وخوارج وغيرهم. يكتب رضوان السيد نقداً طريفاً للإزدواجية في تقدير الأزهريين لزيارات ومحاضرات جويدي ونللينو وجارودي وردونسون في الجامعات المصرية وتقديرهم شفوياً والاستعانة بكتاباتهم التي وافقت الرؤيا الاسلامية للأشياء، ثم مهاجمتهم دوماً على أساس نظرية التآمر ضد الإسلام، وبصورة عمومية.[1] أما عن الحضارة الاسلامية فمن الذي ينكر كتاباً مثل مؤلف زيغريد هونكه الذي جرّ عليها في الغرب كله تهمة التعصب للمسلمين العرب؟ ومن يستطيع أن ينكر فضل نورمان دانيل في كتبه الثلاثة حيث كشف مآخذ التعصب الغربي ضد الإسلام والمسلمين منذ ظهور الاسلام حتى الحرب العالمية الأولى؟.

ذلك التعميم عن سوء نوايا الغربيين «كلهم» تجاه المسلمين والعرب قد يقود أي كاتب كان إلى شيء من المبالغة. وإحدى هذه المبالغات هي نظرة الوزان للعلوم الآتية من الغرب عامة. في الفصل الثاني يشير الوزان إلى سعي المستشرقين للتقليل من مواهب اللغة العربية، كما يرى، ثم يكتب :«فذهب المستشرقون إلى إحياء لغات قديمة وميتة من ذلك مثلاً ما فعله شمبليون الذي بحث في حجر رشيد وعمل على إحياء اللغة الهيروغلوفية في مصر وكذا ما فعله بعض المستشرقين في إحياء حضارات ولغات الأمم الأخرى وذلك بقصد قطع الصلة التي تجمع المسلمين والأمة الإسلامية بلغة القرآن الكريم .. فباسم البحث الجيولوجي تستر شمبليون في الدعوة إلى الهيروغلوفية وأنها لغة مصر الأولى وبهذا يسعى المستشرقون إلى تحقيق هدف القومية والشعوبية وربط الأمة الإسلامية بالأرض وبالآثار الجاهلية التي قضى عليها الإسلام بدلا من أن يكون ارتباط الأمة الإسلامية بالعقيدة والشريعة الإسلامية. وبالنظر إلى مثل هذه الأمور والبحث عن الآثار ومعرفة التركيب الطبقي للأرض والتحليل الجيولوجي والتربة والصخور كل ذلك وسيلة توصل إلى هدف من أهم أهداف المستشرقين وهو إحياء الجاهلية، والماضي الذي كان وبالاً على الأمم والشعوب».

لابد أن العقل لا يدعو إلى مثل هذه النظرة للجهود العلمية التي تأتي من كل بقاع العالم وتصل إلى كل الربوع. هنالك التخليط بين الجيلولوجيا والآركيولوجيا في المقتبس السابق. وهنالك التفرع العلمي الذي يجعل الدراسات المصرية والعراقية والفينيقية والنوبية والحميرية والنبطية القديمة في معزل تام عن الاستشراق وكذلك عن الدعوات العنصرية الحديثة التي تهدف إلى عزل الشخصية الإقليمية في لبنان أو مصر أو العراق عن التيار الإسلامي العربي الموحد. وثالثاً، فان المسمارية والمسند والهيروغليفية لغات غير حية ولا نحيا وحضارتها بائدة واقعياً وباقية فقط كمعارف تاريخية. والتاريخ وعلم طبقات الأرض وما سواهما هي زاد للحاضر لا غنى عنها في بناء حضارة اليوم. هذه الرؤية وما شاكلها كانت نقمة على الفصول الوسطى من كتاب الوزان. وبقدر ما يعجب المرء بالحماس الاسلامي الذي يدفع بالكاتب قدماً من صفحة إلى أخرى، بقدر ما يتأسف على طمس الحماس الدفاق لمعقولية النقاش.

مثلاً مقطع كهذا : «فمن تعلم في فرنسا يرى القدوة كل القدوة في النظام الفرنسي، ومن درس في بريطانيا فالنظام البريطاني بالنسبة له هو المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى. وكذا الحال لمن تعلم في الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. وهؤلاء الأشخاص كل منهم يحاول جاهداً في أن تطبق أنظمة تلك البلاد بخيرها وشرها في بلاد المسلمين ولو كان ذلك على حساب الاسلام وتعاليمه». هذا تعميم لا يجوز. فالمؤلف نفسه، وشيخ

الأزهر السابق عبد الحليم محمود وآلاف من المسلمين الحادبين على دينهم تتعلموا في الغرب. والقلة لا تتخذ كقاعدة. وحتى نقفل هذا الباب نستعين برأي لحمد الجاسر سجله في مقدمة الترجمة لكتاب جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب. قرظ الجاسر هناك مجهودات مستشرقين من صنف فردننبد وستنفيلد، دفيد هنري ملر ودي. خويه ثم قال: «إن القارىء العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله، أياً كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، وأولئك ــ بحكم بعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي ــ تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب، عن بلادنا وتاريخنا، لنقبل الحق وننتفع به، وننفي الزيف ونأباه».(٢) هكذا يجب أن نوسع الآفاق.

أبدع الوزان في توجيه نقد صائب لمحاولات أقسام الاستشراق في الغرب احتضان بعض الطلاب المسلمين العرب وصبغهم بقدر هائل من النزق والشطط في نظرتهم للإسلام وحضارته. يرد هذا في الفصل السادس. هذا النقد يتماشى مع ما يوجهه إدوارد سعيد من نقد للتبعية السياسية والإقتصادية التي يتبعها الشرق حالياً تجاه الغرب. ويربط الوزان بين نقده هذا وبين لوم كثير يوجهه إلى الدول الاسلامية التي قدمت العون المادي لمعاهد الاستشراق في بريطانيا وأمريكا. ويظل أجمل فصول كتاب عدنان الوزان هو الفصل السابع حيث تابع بدأب شديد الأعمال الأدبية الغربية التي اعتمدت على رؤيا خيالية للمسلمين العرب. وكان الوزان مخلصاً لمنهجه الأول فعزا كل الرؤيات المشتطة للإسلام في هذه الأعمال إلى العداء التقليدي الغربي تجاه هذا الدين. ولربما صدق أيضاً أن الظلال الثقافية تلون المبدعات الخيالية رغم أنفها. فغير الوزان من كتب عن صيغة الاعجاب بشخصية صلاح الدين الأيوبي مثلاً، وفرسان العرب عامة، في الأدب الغربي. وفي الوقت الذي ينظر فيه الوزان إلى كتب الرحلات إلى الشرق كوسائل لمعرفة الأوضاع السياسية والعسكرية والجغرافية والتجارية والاستراتيجية لبلاد المسلمين يرى حمد الجاسر، وربما غيره أيضاً، فضل هؤلاء المغامرين في كشف الوقائع العلمية الجغرافية والتاريخية لتلك البلاد وهو أمر محبب(٣). وعندئذ فلا مانع أن يكون للجهد البشري طرف مفيد وآخر مضر. وبهذا نصل إلى إدراك الطابع العام لاسهام هذا الكتاب في الحديث الطويل الباقي حول دور المستشرقين في عالم الإسلام.

هوامش

(١) رضوان السيد (١٩٨٣)، «ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب» في مجلة الفكر العربي، الهيئة القومية للبحث العلمي، بيروت، ع ٣١ مج ٥ يناير ــ مارس ١٩٨٣، ص ص ٤ ــ ٢٣.

(٢) و(٣) حمد الجاسر (ب ت) تقديم ترجمة قدري قلعجي لكتاب جاكلين بيرين اكتشاف جزيرة العرب، بيروت، دار الكتاب العربي.